

الدرس الثالث

المصادر والمراجع: أهميتها وعملية الوصول إليها (2)

1. كيفية الوصول الى المصادر والمراجع:

هنالك أكثر من وسيلة للوصول إلى المصادر والمراجع التي تخص البحث التاريخي من قبل الباحث، وان مسألة الاستعانة بهذه الوسائل تسهل على الباحث سعة الاطلاع واختزال الزمن، وهما أمرين هاميين في مراحل انجاز البحث التاريخي. ولو تمكن الباحث من تنظيم هذه العملية سوف يتمكن من الوصول إلى قدر كبير من المعلومات التي تساعده على فهم جزئيات بحثه، والعكس من ذلك صحيح.

أولى الخطوات التي تستدعي الباحث أن يقوم بها خلال مرحلة جمع الأصول، هي حصر مصادر الموضوع على اختلافها. وفي هذا الإطار، فإن المصادر المتواجدة في المكتبات تمثل سنداً هاماً لا يمكن الاستغناء عنه. لان كتابة التأريخ الحقيقي لا تبدأ إلا بالنظر إلى المادة الخام الأولية كأحد عناصر البحث العلمي. لكن قبل الخوض في عملية البحث الحقيقية، ينبغي على الباحث الاطلاع على كل ما متوفر حول الموضوع، وقد تأخذ هذه العملية عدة شهور من اجل التعمق في كل الأصول الخاصة بالموضوع. وفي حال ضيق الوقت، سيحتتم عليه انجاز عملية القراءة بسرعة والاستعلام حول طبيعة الموضوع والإلمام بمختلف جوانبه جهد الإمكان.

ويتطلب خلال هذه المرحلة من الباحث الاطلاع على كل ما يتعلق بالإنتاج الفكري المتعلق بموضوع بحثه، وإن الخطوة الأولى التي يجب أن يتبعها الباحث في حصر معلوماته من الأصول التي تخص موضوعه أن يكون عارفاً بطرق عمل المكتبات والأرشيفات وغيرها من المراكز العلمية المختلفة. ومن أجل تحقيق ذلك على الباحث أن يقوم بالأمر الآتية:

أ- فهارس المكتبات:

على الباحث أن يطلع على فهارس المكتبات بمختلف أنواعها، وعن طريق الفهارس يستطيع الباحث أن يتوصل إلى العديد من مصادر المعرفة المتعلقة بموضوع بحثه، واستعمال الفهارس يتطلب دراية ومعرفة بنوعية الفهارس وطرق التصنيف المتبعة في المكتبة.

ب- المراجع على اختلاف اختصاصها:

المراجع بمختلف أنواعها هي كتب يرجع إليها الباحث بقصد الحصول على معلومات أو حقائق محددة لكثير من المصطلحات والتعريفات المتعلقة ببحثه، وفي ذات الوقت تفيد المراجع في إعطاء مدخل أولى للمعلومات في مختلف فروع المعرفة، واستعمال المراجع يتطلب خبرة في طريقة استعمالها، وأهم المراجع التي من الضروري أن يطلع عليها الباحث، هي: المعاجم، الموسوعات، معاجم التراجم، الأطالس، الكتب السنوية، الأدلة، الكشافات، المستخلصات والبيبلوغرافيات.

ج- الدوريات البيبلوغرافية:

الدوريات هي عبارة عن مطبوعات تصدر في فترات منتظمة أو غير منتظمة. والدوريات تفيد الباحث لأنها في الغالب تنشر آخر ما وصلت إليه البحوث في فروع المعرفة، والمعلومات التي تقدمها الدوريات أحدث من المعلومات التي تقدمها الكتب.

د- مصادر المعلومات الأخرى:

إلى جانب ما ذكرناه من أصول يمكن أن يعود إليها الباحث، عليه الاطلاع على كل مصادر المعرفة غير المطبوعة (أفلام، أشرطة، رسومات ولوحات)، وكذلك يجب عليه أن يطلع على البحوث والتقارير التي تقدم في المؤتمرات العلمية. ومواقع دور النشر وبيع الكتب على شبكة الانترنت.

هـ - استفسار أصحاب الاختصاص والخبرة:

في كل اختصاص هناك أشخاص لهم من الخبرة والدراية والتجربة مما يجعلهم قادرين على توجيه الباحث نحو أهم عناوين المصادر والمراجع التي يمكن أن تعينه في بحثه ، وفي مقدمتهم المشرف.

و- الاستعانة بخبرات عمال المكتبات:

على الباحث أن يتوجه إلى عمال المكتبات (على اختلاف مهامهم) لاستفسار عن موجودات المكتبات العاملين بها وطرق تنظيمها وعن نظام الإعارة والتعليمات الخاصة بها. وعن أوقات فتح المكتبات والساعات التي يسمح للباحثين بالتواجد فيها، وغيرها من الخدمات التي تقدمها المكتبات للقراء، مثل: عملية الطباعة والاستنساخ. كما يتوجب على الباحث أن يفهم

النظم المتبعة في حفظ مجموعات المكتبات، هل تتبع المكتبات نظام الرفوف المفتوحة أم المغلقة، وهل يوجد بالمكتبات أدلة توضح كل التعليمات المتعلقة بخدمات المكتبات.

ومن أجل تسهيل عملية حصر أصول الموضوع على اختلافها: وثائق، كتب، مذكرات، دوريات وغيرها من الأصول، فإنه من المستحسن للباحث أن يعد فهرسا بالمصادر والمراجع التي يعثر عليها في المكتبات، وعليه حصر كل ما له علاقة بالموضوع، أو التي يمكن أن تفيد البحث في أحد جوانبه. ويتضمن هذا الفهرست المعلومات الآتية:

- اسم المؤلف.
- عنوان المصدر أو المرجع.
- معلومات النشر(اسم الناشر، مكان وتاريخ النشر، الطبعة، المجلد إن وجد، المترجم إن وجد).
- مكان وجوده.
- التصنيف (رقمه ورمزه).

ولابد من الإشارة هنا، إلى مسألة عدم استهانة الباحث بأي أصل من أصول لها علاقة بموضوع بحثه، فلا يزدرى أيا من المصادر والمراجع التي تخص بحثه أو يهملها، لان أضالها وأقلها شانا لدى النظرة الأولى قد يصبح بعد التحقيق والقراءة المركزة أشدها أهمية وأغناها بالمعلومات.

إن التنظيم المحكم والقدرة على الانجاز كفيلة في تسهيل عملية البحث عن الأصول والوثائق الخاصة بموضوع معين مهما كانت صعوبته، لأنه النجاح في الوصول السريع إلى الأصول الحقيقية تمكن الباحث من تحقيق استمرارية طبيعية والانتهاء من مهمته بكل يسر وسلاسة. وعلى الباحث أن يتتبع ما كتب عن موضوع في مختلف المؤلفات، المباشر منها والغير مباشر. وبعد أنجاز هذه المهمة، ينطلق الباحث بمهمة أخرى ضمن عملية جمع الأصول، وهي عملية القراءة والتدوين.

2. طرق تحديد المصادر والمراجع:

على الباحث أن يمتلك أدواته التي تمكنه من أجل الوصول السلس للأصول التي تدخل في صلب موضوعه. وهذه الأدوات تأتي من التدريب العلمي - الأكاديمي الذي يتوفر له في المؤسسات الأكاديمية من أجل الحصول على المهارات الأولية اللازمة للاحتكاك بالأصول، وتفحص محتوياتها وخباياها خلال عملية الكتابة ويتعلم كيفية تحويل مادتها إلى متن تاريخي ومنطقي له خصائص البحث الشيق. ومن الضروري أن يستعين الباحث بذوي الخبرة والدراية بموضوع بحثه، وهذا سوف يساعده في الوصول السريع إلى بعض المصادر والمراجع المهمة والتي هي في صلب الموضوع، كما يفيد في تنسيق آليات العمل بالشكل الصحيح، ويفتح له أبواباً نافعة تسهل عليه عملية الانجاز بوقت أقل فيما لو اعتمد على إمكانياته الذاتية. وعلى الباحث العمل من أجل عقد صلات ودية مع المشرفين على المكتبات التي يتردد عليها، فاعلم هؤلاء لهم خبرة كبيرة بالمراجع والمصادر التي تتصل بالموضوع. إلى جانب ذلك، يجب أن تتوفر في الباحث عدد من المواصفات الضرورية التي تنفعه في عملية جمع الأصول، والتي يجب ان يحرص عليها الباحث ويعمل على تطويرها باستمرار لأهميتها في اختصار الزمن وسرعة جمع الأصول، وهي:

أ. القراءة:

على الباحث أن يتحلى بالقدرة على القراءة الواعية المتأنية وجمع المعلومات، وهما الأساس في إعداد الباحث للعمل المكلف به، ولتجنب الازدواج في العمل، ولتوفير الجهد والوقت الذي كان على الباحث بذله للحصول على المعلومات التي سبق لغيره الحصول عليه، ولفتح آفاق جديدة بالبحث. وعلى الباحث أن يقرأ ليس فقط في موضوع تخصصه، بل وفي مواضيع أخرى متشعبة، فأتساع المعرفة، يؤدي إلى سعة الأفق، وتنوع الأفكار وتجدها، وخلق الابتكار. ومرحلة القراءة تمثل مرحلة نضج الأفكار والاطلاع على الحقائق والمعلومات التي تتعلق وتتصل بموضوع البحث. والقراءة تخلق حالة من التأمل والتحليل العقلي والفكري حتى تولد في ذهن الباحث البنية والهيكلية التحليلية للموضوع. وإذا ما حققت مرحلة القراءة والتأمل الغاية والهدف منها، تجعل الباحث مسيطراً ومستوعباً لكل أسرار وحقائق موضوعه ومتعمقاً في فهمها وقادراً على استنتاج الأفكار والفرضيات والنظريات منها.

والقراءة هي واحدة من أصعب مراحل البحث، ولا يمكن أن تتحقق الفائدة المرجوة منها إلا إذا توفرت الشروط والقواعد المنهجية والموضوعية لها، ويمكن أن نصنف القراءة إلى المستويات الآتية:

● القراءة التمهيديّة: وهي التي تتم في المراحل الأولى لاختيار الموضوع وضبط الإشكالية، كما تعتمد القراءة التمهيديّة في المراحل الأولى من البحث بعد اعتماده لتحديد أولويات المصادر وتوزيعها على محاور البحث.

● القراءة المعمّقة: ويعتني الباحث فيها باختبار المعلومة ومناقشتها ونقدها، ويعتمد هذا المستوى من القراءة في المصادر التي تتصل مباشرة بإشكالية البحث سواء في مرحلة اختيار الموضوع أو بعد اعتماده.

● القراءة المتخصصة: بعد المرور بالقراءتين السابقتين تظهر للباحث بعض المصادر التي يراها تحتاج إلى قراءة مركزة لأنها ذا قيمة علمية كبيرة وذات صلة متينة بموضوع البحث. وهذه القراءة هي التي يعتمد على أثرها الباحث المعلومات وتقميشتها واعتمادها في البحث، وهذا النوع من القراءة هو الأساس الذي يركز عليه البحث فهي التي تقود الباحث نحو المنهجية الجيدة والتحليل القيم. وبناءا عليه، فهي تتطلب قدر كبير من الصرامة في القيام بها، لأنها تخرج زبدة البحث.

ب. الإلمام باللغة:

الإلمام باللغة التي كتبت بها المصادر والمراجع، ولا بد للباحث التاريخي مبدئيا من معرفة اللغة الأصلية الخاصة بالموضوع التاريخي الذي يقوم بدراسته. وكلما تعددت لغات التي يلم بها الباحث، فإنه يكون أقدر على الرجوع إلى المصادر التاريخية الأصلية، ويتمكن من إدراك الحقائق من مظانها المباشرة، بدل الاعتماد على الترجمات التي قد تشوه المعاني الأصلية وتحرفها.

إن مسألة إتقان اللغة الأصلية الخاصة بموضوع البحث الذي يدرسه، تساهم في اتساع أفق الباحث، وتمكنه من فهم واستيعاب قيمة المعلومات التي يتعامل معها. لأن إتقان لغة المصدر والمرجع تبعد الباحث من أن يكون تحت رحمة غيره وأن يسمح لنفسه أن يستجدي عطف وإحسان الآخرين - إن صح التعبير -.

وعليه، أن مسألة إلمام باللغة التي كتب بها المصدر أو المرجع من قبل الباحث ضرورية وهامة، وهي تساعد على فهم التعبيرات التاريخية بمضمونها الصحيح، وكذلك فهم وإدراك معنى ومضمون ما يقرأ. وهذا ما يجعلنا، نؤكد على مسألة فهم وإدراك أهمية فقه اللغة (**Philologie**)، والتي تعتبر من العلوم الضرورية للباحث إذا ما تخصص في علم التاريخ، لان اللغة كائن حي ينمو ويتغير ويتطور تبعاً لظروف المكان والزمان واختلاط الثقافات. ففي بعض الأحيان قد يدل اللفظ اللغوي على معنى محدد تماماً، كما يمكن أن يدل اللفظ اللغوي على معانٍ مختلفة باختلاف استخدامها عند كاتب بعينه. ونتيجة ذلك، لا بد من معرفة اللغة التي يقرأ فيها الباحث في التاريخ، إلى جانب الدراية بما نال ألفاظها من المعاني المتفاوتة أو المختلفة، حتى لا يفسر ما يقرأ على غير حقيقته. وكثيراً ما تحدث أخطاء تاريخية بسبب رداءة فهم الباحث للدلالات الحقيقية للكلمات أو بسبب جهله لقوانين اللغة وقواعدها.

ونختتم حديثنا هذا، بما كتبه جان بيار برانير بخصوص أهمية إتقان اللغات التي تخص الحدث المدروس، حين قال: "تحدد اللغات التي تتقونها وصولكم إلى حقول ثقافية معينة وقد تتعلق إمكانية تحقيق دراستكم بالمأمكم باللغات".

ومن الواجب على الباحث أن يجتهد في تدوين ما يتم جمعه من معلومات تخص البحث عبر الاعتناء بالخط والدقة التامة في عملية النقل، لكي لا تعوقه رداءة الخط أو عدم وضوحه عن استعمال ما جمع عندما تبدأ مرحلة الكتابة. وكذلك يجب على الباحث أن ينقل ما يأخذه من المصدر حرفياً دون تعديل أو اختصار، سواء كانت المادة المدونة باللغة العربية أو بأي من اللغات الأجنبية. وحين يعكف الباحث على نقل شيء من المصادر عليه أن يهتم بالمصطلحات التاريخية، وأن يفهم كل كلمة وتعبير ويقرا السطور وما بين السطور، ويحرص كل الحرص على نقل كل ما هو على علاقة بموضوع البحث مهما كانت قيمته.

3. مرحلة جمع المصادر والمراجع

ولابد من الإشارة هنا، إلى أن عملية جمع الأصول تنقسم إلى قسمين، هما: القسم الأول: الأصول التي استعان بها الباحث في مرحلة اختيار الموضوع وتحديد الإشكالية للبحث. ويكون الباحث هنا استعان بالقوائم البيبلوغرافية التي تضمنتها تلك الأصول للوصول إلى أصول أخرى تهم الموضوع. القسم الثاني: هي الأصول التي سيقوم الطالب بحصرها بعد مرحلة اختيار

الموضوع وتحديد الإشكالية واختيار المشرف، وهي المرحلة الأكثر أهمية بالنسبة للباحث الذي يريد التميز لأنها بالفعل سوف تحدد نجاح أو فشل البحث فيما بعد.

مخطط

يوضح العوامل المساعدة للوصول السلس لمصادر البحث

